

عمر الغباري *

النكبة بالعبرية: كيف نقول نكبة بالعبرية؟

وفرض اللاعبين الأساسيين في الساحة السياسية - كالمنظومة الدولية، دولة إسرائيل، منظمة التحرير/ السلطة الفلسطينية وغالبية هيئات ومنظمات المجتمع المدني- هذا الخطاب المتناسق مع القرارات الأممية والمصالح الدولية والواقعية السياسية. وقد تغلغلت هذه «الواقعية والعقلانية» في الأطر والمؤسسات التي نظمت نشاطات ولقاءات فلسطينية- إسرائيلية، ورُسمت حدود الحوار وفقاً لها، ليتشكّل من خلالها فكر سياسي محاصر ووعي منقوص لا تتعدّى أبعاده خطأ أخضر يبدأ وينتهي في الضفة وغزة، ومن يتجاوزها يظهر بصورة المتطرف وغير البراغماتي.

كان من ضمن العاملين في هذا المجال مجموعة من المرشدين/ ات والموجهين/ ات الإسرائيليين الذين أصابهم إحباط من عدم توصل المناورين في هذه اللقاءات إلى منجزات شافية يمكن تسميتها حلاً وعدلاً، حتى في نظر مقترحيها، وإنما التوصل

عندما كان يلتقي طلاب فلسطينيون وإسرائيليون في ورشات عمل وحوار تحت عنوان «الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني» من أجل رفع الوعي في قضايا الهوية والصراع والاحتلال والسلام، كان جلّ النقاشات بين المشاركين يدور حول «العلاقة النزاعية» بين دولة إسرائيل والمجتمع الفلسطيني الرازح تحت الاحتلال العسكري في الضفة الغربية وقطاع غزة، وكانت الطاقات تُبذل بل ربما تُهدر لإيجاد حلول سلمية لحل النزاع بين الجارين المتخاصمين على قطعة من الأرض احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧.

كان من الواضح أن محور النقاش حول تلك البقعة الجغرافية وتلك الفترة الزمنية دون غيرهما إنما هي إفراز ناتج عن موازين القوى المؤثرة على الخطاب السياسي المتعلق بالقضية الفلسطينية

* مرشد وباحث في جمعية «ذاكرات» (زوخروت).

كانت الجولات بين أطلال القرى المهجرة هي الآلية الأولى التي اتخذتها زوخروت وسيلة لدعوة الجمهور الإسرائيلي للتعلم عن النكبة. كانت وما زالت الزيارة إلى بلد فلسطيني مهجر والتجوال في دروب الغياب الذي تركته النكبة تجربة لها عميق الأثر على نفوس الزائرين، تستنزف فيهم مشاعر متلازمة من الحزن والغضب والخوف والتضامن إلى جانب حب الاستطلاع وتعلم التاريخ والتعرف على الحقيقة.

على عسكرة الوعي وكيفية تشكيل الذاكرة الجمعية الإسرائيلية. وقد ارتأينا ترجمة الاسم إلى العربية بمصطلح «ذاكرات» ليدمج بين صيغة جمع المؤنث ذات المغزى اليمينية لبلورة الذاكرة الجمعية، وصيغة جمع لكلمة «ذاكرة» بمعناها المعروف كمخزون الذكريات، والمقصود بالطبع ذاكرات النكبة.

من هنا تتضح وظيفة زوخروت السياسية والتربوية تجاه المجتمع الإسرائيلي، حين مَوَّضَعَتْ نفسها في خط المواجهة أمام المعتقدات الأيديولوجية الراسخة في العقلية الإسرائيلية، الرسمية والشعبية على حدّ سواء.

كانت الجولات بين أطلال القرى المهجرة هي الآلية الأولى التي اتخذتها زوخروت وسيلة لدعوة الجمهور الإسرائيلي للتعلم عن النكبة. كانت وما زالت الزيارة إلى بلد فلسطيني مهجر والتجوال في دروب الغياب الذي تركته النكبة تجربة لها عميق الأثر على نفوس الزائرين، تستنزف فيهم مشاعر متلازمة من الحزن والغضب والخوف والتضامن إلى جانب حب الاستطلاع وتعلم التاريخ والتعرف على الحقيقة. ومع ذلك، لم تكن الجولة بحدّ ذاتها إلا مرحلة - وإن كانت مركزية- قد سبقتها مرحلة البحث وجمع المعلومات والتوثيق، ومقابلة لاجئين/ات أو مهجرين/ات وجمع شهاداتهم عن حياتهم قبل النكبة وحيثيات تهجيرهم ومسار لجوئهم، ثم مرافقتهم إلى بلدتهم المهجر، وفي الغالب مدمر، وتتبع خطواتهم السريعة في موقع القرية وكأنهم يرون ما لا نرى ولمسونه ما لا نلمس، ويصفون البيت الذي كان وعين الماء، ويشيرون إلى موقع المدرسة والبيدر، ثم يحكون عن ساعات الهلع ودرب النزوح. نوثق كل هذا ونترجمه إلى العبرية ونصدر كتيباً عن كل بلد نزوره ونوزعه بين الأطلال على المشاركين في الجولة. ثم تأتي إحدى لحظات النشوة خلال الجولة عندما يزرع اللاجئون بمساعدة بعض آخرين، ومنهم إسرائيليون، لافتات

في أفضل الحالات إلى حلّ وسط أو تنازلات عملية أو اتفاق ما، يمكن وصفه بردّ فعل على الوضع السائد ومقيّد بموازن القوى، وليس طرحاً يرسم المستقبل الفلسطيني- اليهودي نابغاً من فهم جوهر العلاقة بين طرفي (عدم) المعادلة.

أدرك هؤلاء الناشطون الإسرائيليون أن طاولة البحث تخلو من عناصر أساسية بنيت عليها العلاقة الفلسطينية- الإسرائيلية، ألا وهي النكبة، وماهية الفكر الصهيوني وإسقاطات التصميم على دولة يهودية. لم يستأنف المشاركون في الحوارات، وإن حاولوا فلم ينجحوا، على الافتراضات المعطاة أن لبّ الصراع كامن في الاحتلال العسكري للضفة الغربية وغزة. لذلك لم تتعرض المعتقدات السياسية والأيدولوجية الإسرائيلية إلى تحدّ كافٍ يساعد المشاركين الإسرائيليين على الانكشاف على حقائق الأمور مما يرغمهم على إعادة التفكير بالمسلّمات التي نشأت عليها أجيال كاملة من المجتمع اليهودي في إسرائيل، وفي مقدمتها الأيدولوجية الصهيونية والمسؤولية الإسرائيلية عن عملية التطهير العرقي لغالبية الشعب الفلسطيني الذي احتلت إسرائيل عام ١٩٤٨ والمجموعات الصهيونية قبل قيام الدولة مدنه وبلدانه وقراه.

دفعت هذه الحلقة المفقودة، في نظر أولئك المربين السياسيين، إلى إقامة إطار جديد يعمل على تعريف الإسرائيليين بالنكبة الفلسطينية، انطلاقاً من إيمانهم بأن أي حل في الحيز الفلسطيني- الإسرائيلي لا بد أن يقوم على الاعتراف الإسرائيلي بالمسؤولية عن النكبة الفلسطينية، وأن إرساء العدالة لا بد أن يقوم على الاعتراف بحق العودة للاجئين الفلسطينيين.

كان ذلك عام ٢٠٠٢ عندما قامت جمعية «زوخروت»، أو باسمها الأول «النكبة بالعبرية»، بمبادرة ناشطين/ات يهود. اختير اسم زوخروت بصيغة المؤنث، ومعناه «متذكرات» ليرسل رسالة فيمينستية مناهضة للعقلية الإسرائيلية الشوفينية التي تعمل



من نشاطات "ذاكرات".

أو رأى. وعليه فإن جولاتنا ونشاطاتنا عن النكبة تؤثر بشكل مباشر على عدد محدود من الإسرائيليين الذين يشاركون فيها، ولكن أثرها يستمر بعد انتهاء الفعالية ويتسع بواسطة شبكات التواصل والإعلام الإلكتروني والنشرات والمقالات المكتوبة واللافتات «المتحركة»، ويصل إلى عدد كبير من الجمهور العريض، وبالعبرية، ويضطره إلى ملاقة النكبة.

يمكننا القول في هذا الصدد إن غالبية الإسرائيليين، قبل نحو عشرين عاماً، لم يسمعو عن النكبة ولم يتعاملوا معها أو يلتقوا بها، وكانت المقالات العبرية التي تذكر مصطلح النكبة نادرة إلى أبعد الحدود، وإن ذكرت فإن كاتبها كان يضطر إلى شرحها بالعبرية لمصلحة قرائه أو «يعتذر» عن استعمال المصطلح فيبرر ذلك بجملة مثل «ما يدعيه الفلسطينيون أنه حدث لهم مع قيام الدولة» أو «هذه كلمة عربية معناها كارثة» أو ما شابه ذلك من الإضافات. أما اليوم فيمكن ملاحظة حضور النكبة، اصطلاحاً ومضموناً، في الكثير من الكتابات والمقالات الصحافية الإسرائيلية ومن ضمنها الصحف والمواقع المعروفة إسرائيليّاً بأنها يمينية، أسبوعياً وربما أكثر، وصار المصطلح مستعملاً باللغة العبرية دون حاجة لشرحه مما يدل على أن القارئ الإسرائيلي أصبح يعرف المصطلح ومعناه. لا يعني هذا أنه يعترف بالنكبة وبمسؤولية إسرائيل عن حدوثها ولكنه على الأقل يعرف الكلمة ومعناها ويعلم أن النكبة قد حدثت. كان لزخروت، مع غيرها من الناشطين والباحثين في هذا المجال باللغة العبرية، فضل في إقحام النكبة إلى داخل الوعي والخطاب الإسرائيليين، وتعزيز حضورها ككارثة وطنية فلسطينية تم إقرارها بأيدٍ

تشير إلى مقبرة القرية المهشمة قبورها أو إلى موقع المدرسة أو المسجد أو الكنيسة، أو إلى منزل اللاجئين نفسه، أو أنها تحمل اسم البلدة الأصلي والذي غيّبه السلطات الإسرائيلية بعملية طمس عنيفة لهوية الحيز الفلسطيني، فعبرته وأسرلته من خلال ابتكار أسماء جديدة قد تكون صهيونية حديثة أو ميثولوجية-توراتية. كل هذه اللحظات، وهي للبعض لحظات شخصية تاريخية، توثق وتنتشر على موقع الانترنت الخاص بزخروت، بلغات ثلاث: العربية والعبرية والانكليزية. تكمن أهمية التوثيق في أنه يمنح ديمومة وتعميماً لذلك النشاط الموضوعي، ويجعله متاحاً للجمهور وللباحثين.

إن آلية التجوال واكتشاف مناطق جغرافية وتوثيقها هي آلية مألوفة لدى الاستعمار الغربي، إذ أرسل رسله إلى مكان ما لاستكشافه وإرسال التقارير عنه ورسم الخرائط قبل استعمارها. وقد كانت زخروت واعية لهذه الآلية، وكانت واعية لشغف الإسرائيليين بالتجوال ومدى جاذبية هذا النشاط بالنسبة إليهم، ولذلك فلم يكن اختيار الجولات للقرى والمدن الفلسطينية المهجرة صدف. إلا أن جولات زخروت غلّفت بأهداف سياسية وتعليمية عن النكبة. وإذا كانت الآلية هذه تُستغل لمصلحة الاستعمار فإن زخروت ترى بجولاتها كنشاط سياسي مناهض يهدف إلى نزع الاستعمار (دي - كولونيالية). هذا النشاط هو بمثابة تمرد على ما نجحت الدولة العبرية بصنعه في الحيز منذ بداية النكبة. ومن هنا، فإن هذا التمرد لا يستقبل بعين الرضا من قبل عامة الإسرائيليين. فتلقى اللافتات التي نصبناها في القرية المهجرة مصير الاقتلاع خلال أيام وأحياناً خلال ساعات.

ليس اقتلاع اللافتات مفاجئاً، لا بل متوقع. ليست زخروت بهذه السذاجة لتعتقد بأن نشاطها داخل المجتمع الإسرائيلي سيسير بسلاسة وتقبل. لكننا نرى أن اقتلاع اللافتة والاعتراض على نشاطات زخروت الأخرى هو جزء من تأثيرنا على المجتمع الإسرائيلي.

نعتقد أن الشخص الذي مدّ يده وأعاد الأمور إلى نصابها الاستعماري المريح بالنسبة له قد اهتزّ من لافطة تبدو بسيطة، ولكنه في الواقع استوعب جوهرها وقوتها، فرأها شبح حقيقة نهضت من داخل الأرض فارتعب وأزاحها من طريقه ومن طريق باقي الإسرائيليين الذين يرتادون المكان بشكل «طبيعي». لا يريد للنكبة أن تقض مضجعه، ولكنها في الحقيقة قد فعلت، فلم يستطع تجاهلها، وفي الوقت ذاته لم يستطع مواجهتها. وإذا كانت النكبة حتى تلك اللحظة غير معروفة لذاك الإسرائيلي أو كان متناسياً لها أو ناكراً لوجودها، فالآن ها قد عرف أو تذكر

يعكس جهاز التعليم في إسرائيل الموقف الإسرائيلي العام إزاء النكبة، فيغفلها من مناهجه التدريسية بشكل تام، ويتبع سياسة التجاهل، فتكاد الكتب الدراسية في موضوع التاريخ تخلو من ذكر أحداث «نكبة». وإن ذكر مصير الفلسطينيين فإنه بأحسن الأحوال يذكر في سياق نتائج «حرب ١٩٤٨» أو «حرب الاستقلال» الإسرائيلية، التي كانت حرب دفاع عن النفس، بدأها ويتحمل مسؤوليتها الفلسطينيون أنفسهم.

إسرائيلية. لم تزل ردود فعل الإسرائيليين تتراوح بين قلة معترفة ومتضامنة وغالبية متهمجة ومعارضة، لا بل مبررة للنكبة ومحملة الضحية المسؤولية عن كارثته وتهجيريه. ولكن عمل زخروت أفضل عملية إغفالها وتغييبها من الحيز الإسرائيلي.

يعكس جهاز التعليم في إسرائيل الموقف الإسرائيلي العام إزاء النكبة، فيغفلها من مناهجه التدريسية بشكل تام، ويتبع سياسة التجاهل، فتكاد الكتب الدراسية في موضوع التاريخ تخلو من ذكر أحداث «نكبة». وإن ذكر مصير الفلسطينيين فإنه بأحسن الأحوال يذكر في سياق نتائج «حرب ١٩٤٨» أو «حرب الاستقلال» الإسرائيلية، التي كانت حرب دفاع عن النفس، بدأها ويتحمل مسؤوليتها الفلسطينيون أنفسهم.

لا يتعلم الطلاب الإسرائيليون عن تاريخ الشعب الفلسطيني قبل النكبة وخلالها، ولا يسمعون عن التطهير العرقي والمجازر التي اقترفتها القوات الإسرائيلية والجماعات الصهيونية، اللهم سوى مجزرة دير ياسين، وذلك «بفضل» اعتراف دافيد بن غوريون بها واعتذاره عنها متهمًا تنظيمي «الليحي» و«الإيتسل» باقترافها لكونهما متطرفين ومزكياً تنظيمه «الهجناه». وما زال الجدل بين هذين التيارين الصهيونيين حول مجزرة دير ياسين دائراً حتى اليوم، إذ يحاول أتباع الأيتسل والليحي الادعاء بأن ما حصل في دير ياسين لم يكن مجزرة، وإنما معركة ضد مسلحين سقط خلالها مدنيون عن طريق الخطأ.

أمام سياسة «التجهيل المتعمد» للطالب الإسرائيلي بما يتعلق بالشعب الفلسطيني، كان المدرسون/ات والعاملون/ات في سلك التعليم الإسرائيلي هدفاً بالغ الأهمية في نظر زخروت وجمهوراً يجدر الوصول إليه والتأثير عليه من خلال توفير مواد تعليمية له عن النكبة. وبما أن إخال النكبة ومواد تعليمية عنها إلى المدارس الإسرائيلية ممنوع، فقد بادرنّا إلى دعوة مدرّسين/ات

إسرائيليين إلى ورشات ومحاضرات عن النكبة أجريناها في مكان ما خارج مدارسهم. كانت اللقاءات شبه سرية، وكأنها خلايا ثورية تخشى أن تُكتشف. وبالفعل فقد طلب عدد من المعلمين عدم كشف أسمائهم وحقيقة مشاركتهم في مثل هذه الورشات. ورغم ذلك، تشكلت عام ٢٠٠٥ مجموعة من المدرسين والمدرّسين/ات وأصدرت بعد ثلاث سنوات من البحث واللقاءات حقبة تعليمية للمدرّس/ة اليهودي/ة عنوانها «كيف نقول نكبة بالعبرية؟». تشمل الحقبة ثلاثة عشر فصلاً عن جوانب متعددة من النكبة مثل الخرائط الإسرائيلية ومحو الأسماء العربية، تجبير الحيز للعيون الإسرائيلية وسياسة إخفاء شواهد النكبة، طريقة تعليم التاريخ لخدمة الصهيونية، البلدان المهجرة: قرية عين غزال مثلاً، شهادات لاجئين فلسطينيين/ات وما يمكن أن نتعلم منها ولا نجده في كتب التاريخ الإسرائيلية، اللاجئين الفلسطينيون، المدينة الفلسطينية قبل النكبة: وادي الصليب في حيفا مثلاً وموضوع حق العودة.

لقد كان القائمون على إصدار الحقبة، وغالبيتهم مدرّسون ومدرّسات في مدارس يهودية، مدركين لصعوبة المهمة، وقد سجلوا هذا التخوف في مقدمة النشرة حيث كتبوا: «إن تعليم النكبة في حيز لا تُذكر فيه تقريباً لهو تحدّ بالنسبة إلينا، كمدرّسين/ات وعاملين في التربية، وهو ليس مفهوماً ضمناً. ليس من السهل إخال هذه القضية إلى المدرسة أو إلى أطر تربوية أخرى: هذا عمل يتطلب جرأة وشجاعة، ومن المتوقع أن يثير اعتراضات كثيرة من جهة المعلمين والطلاب والأهالي. نحن نقترح التطرق إلى النكبة، وإلى هذه الحقبة، كوسيلة ممكنة لتطوير التفكير النقدي وطرح الأسئلة....».

وصلت هذه الحقبة إلى مئات المدرّسين/ات في المدارس اليهودية. وهم يعلمون أن استعمالها داخل الصف ممنوع. لقد شعروا بالحاجة أولاً إلى المعرفة من أجل أنفسهم، بصفتهم

مختصين في موضوع التاريخ أو المواطنة أو التربية الاجتماعية، وإلى توسيع آفاقهم في مجال تخصصهم. ثم بدأوا باستعمال بعض ما قرأوه في الحقيبة وتدرسه للطلاب، وإن كان بشكل حذر وجزئي. من جهتنا هذه بداية التغيير. لكن الأمر لم يكن سهلاً. ثلاثة من المعلمين/ات تم «اكتشافهم» ومن ثم استدعاهم لاستجواب لدى المدير أو مفتش وزارة التربية والتعليم وطولبوا بالتوقف عن التطرق إلى موضوع النكبة، وقد تم تهديد مدرّسة واحدة على الأقل بالإقالة من منصبها إن تعدت مرة أخرى «حدود وظيفتها» باستعمال المواد التعليمية عن النكبة. المثير في الأمر أن اكتشاف هؤلاء المدرسين/ات «العاقين» تم بواسطة طلابهم. لقد أخبر الطلاب والديهم أو مديريهم بما سمعوه في الصف عن النكبة. ربما لم يقصدوا كلهم الوشاية بمدرّسهم، ولكن بعضهم بالتأكيد قد فعل ذلك قاصداً الوشاية والشكوى ضد هذه المضامين الجديدة. هذا مثال رائع على صلاية التربية الإسرائيلية الصهيونية وأثرها على الجمهور الإسرائيلي، فهي تدفع طالب مدرسة ليتصرف مثل وكيل مخابرات ضد مدرّسه، ويرى نفسه مسؤولاً عن الحفاظ على السردية الإسرائيلية، بل مرعوباً من إمكانية دخول «شوائب» حقيقية عليها، لم يسمع بها من قبل، قد تنسف كل نظريته للواقع وللدولة وللتاريخ. زوخروت تعمل في هذا الجو المتصلّب والمحاط بسدود منيعة، محاولة صدع ما يمكن صدعه فيها.

صرنا نشهد مع الوقت ازدياداً في عدد المعلمين في المدارس اليهودية وفي الجامعات الإسرائيلية الذين يتطرقون إلى موضوع النكبة، بل إن بعضهم - وما زلنا نتحدث عن أعداد صغيرة لا تتعدى عشر مؤسسات في السنة- يجروؤن على دعوتنا للقاء طلابهم لإلقاء محاضرة عن النكبة داخل المدرسة، أو إرشادهم في جولة في إحدى البلدان الفلسطينية المهجرة.

هذه ظاهرة مثيرة، خاصة في ظل القوانين والضغطات الرسمية الإسرائيلية ضد نشاطات من هذا القبيل، وفي ظل خطوات تضيق الحريات ومحاولة كمّ الأقوا داخل المجتمع الإسرائيلي. كما أن نشوء منظمات يهودية فاشية تراقب وتتابع نشاط الجمعيات الأهلية وتعمل على «فضحها» أمام الجمهور الإسرائيلي كان من المفترض أن يزيد من خوف المدرّسين. إلا أننا نشهد ردة فعل عكسية. ولا نوهم أنفسنا، فهي ما زالت هامشية في المجتمع الإسرائيلي، ونعلم صغر حجمها وعدم قدرتها على تغيير الواقع، إلا أنها جديرة بالاهتمام والتشجيع والصيانة. لأن هذه في نهاية الأمر شروخ في جهاز التعليم الإسرائيلي، وما تفعله زوخروت هو صنع هذه الشروخ ومن ثمّ توسيعها.

لقد تعلمنا من خلال التجربة أن الأصوات الإسرائيلية المعارضة لاستحضار النكبة والفعاليات المتعلقة بها إلى الحيز الإسرائيلي قد ساهمت، من دون قصد، في توسيع الدوائر المجتمعية الإسرائيلية التي تعرف عن النكبة. وكلما كان أصحاب هذه الأصوات «الهجومية على النكبة» أرفع منصباً وأكثر شهرة وأشدّ ضجيجاً كلما كانت مساهمتها أنجع بإيصال النكبة إلى أعداد أكبر من الإسرائيليين. لذلك يمكن القول إنّنا معنيون باستنهاض هذه المناكفات والنقاشات، ما دفعنا إلى زيادة المبادرات والنشاطات، ومن المفضل أن تكون إبداعية ولافتة للنظر. فعلى سبيل المثال، عندما أصدرنا عام ٢٠١٢ خريطة النكبة بالعبرية، وعليها أسماء ٦٠٠ مدينة وبلدة وقرية فلسطينية مهجرة، اضطرت وزيرة الثقافة آنذاك ليمور لحنات إلى التعليق عليها، فقالت متهكّمة: «نقاط، نقاط، نقاط في كل أنحاء البلاد». هذه الملاحظة الإنكارية الصادرة من ليمور لحنات كُتبت بالصحافة الإسرائيلية ووصلت آلاف الإسرائيليين الذين لم يكونوا ليسمعوا عن النكبة لولا ردة فعل الوزيرة.

نظمنا على مدى السنوات الست الأخيرة كل عام، في ذكرى قرار التقسيم، مهرجان أفلام سينمائية أسميناه «مهرجان ٤٨ ملم» أفلام في أعقاب النكبة ونحو العودة». يتم عرض غالبية الأفلام في سينماتك تل-أبيب، أحد معاقل الهوية الإسرائيلية والحياة الثقافية الإسرائيلية. هي خطوة متعمدة وأسلوب متبع من قبل زوخروت أن تعقد بعض نشاطاتها الكبيرة في مؤسسات إسرائيلية معروفة ومركزية، كجزء من إستراتيجية الشرح ولوصول قطاعات مختلفة من الجمهور الإسرائيلي. في كل عام يثير هذا المهرجان ضجة إعلامية مصدرها اعتراضات أوساط يهودية صهيونية على تنظيم مهرجان عن النكبة والعودة وكذلك على عرضه في سينماتك تل-أبيب بالتحديد. قامت وزيرة الثقافة الإسرائيلية ميري ريجف في العامين الماضيين بالتصريح للصحافة عن معارضتها للمهرجان ومضمونه وقامت بتهديد السينماتك باقتطاع جزء من ميزانيته في حالة استضافة المهرجان. قامت الصحافة الإسرائيلية، بعد تصريح الوزيرة، بتغطية الخبر وإعطاء تفاصيل أكثر عن المهرجان، ما خلق جواً من العلاقات العامة للحدث السينمائي المثير. وقد صمم السينماتك، في كل مرة، على قراره وتم عرض جميع أفلام النكبة والعودة في قاعات السينماتك في قلب تل-أبيب أمام مئات الإسرائيليين، ويمكن التخمين أن عدداً منهم قد عرف عن المهرجان وحضره بعد إشهاره، بنية سيئة، من قبل وزيرة الثقافة.



خريطة "ذاكرات": استعادة عبرية للقرى الفلسطينية المدمرة.

ليست هذه الطريقة التي تصرخ نكبة وتصدح عودة من عقر دار الهوية الإسرائيلية مفهومة ضمناً وليست مضمونة النجاح، ولكنها بكل الأحوال تفعل فعلها الاختراقي للوعي الإسرائيلي، وبمساعدة المعترضين أحياناً. وفي كل مرة ومع كل نشاط تتسع الدوائر الإسرائيلية التي تصلها أصداء النكبة.

ابتكرنا في عصر الهواتف الذكية والمتاحة لكل شخص تقريباً، وسيلة لوضع النكبة بين يدي كل من يشاء، من خلال تطبيق مميّز اسمه iNakba يمكن تنزيله على كل هاتف ذكي. يحمل التطبيق كل المعلومات التي جمعناها خلال ستة عشر عاماً من العمل بموضوع النكبة والبلدان المهجرة، تنبسط في مركز التطبيق خريطة النكبة وعليها «نقاط نقاط نقاط في جميع أنحاء البلاد»، كل نقطة منها هي موقع بلد فلسطيني منكوب. الضغط على النقطة يفتح صفحة البلد المهجر ويمكن الإبحار بين المعلومات والصور التابعة له. ليس هذا فحسب، بل إن التطبيق يحمل أيضاً نظام المواقع العالمي GPS ويمكن استعماله كدليل طريق يأخذ المستخدم إلى موقع البلد المهجر. هذا حقاً عمل إبداعي تنفرد به زخروت. هذا هو الدليل الوحيد في العالم الذي يوصل المسافرين إلى موقع غير موجود في الواقع. يوصلهم إلى لا مكان. يغشاهم شعور غريب من ملامسة الغياب. ثم يدعهم إلى رؤية الأطلال الفلسطينية ومعرفة تاريخ الموقع وإدراك الوجود المغيب وهوية المكان المنفية.

يعطي التطبيق، لكونه تفاعلياً، فرصة لكل مستخدم للمساهمة في تحديث المعلومات المتعلقة بالبلد المهجر وتوثيق وضعه الراهن من خلال تصوير الموقع وتحميل الصور على التطبيق. تكاد تكون عملية التصوير والتفاعل مع التطبيق خطوة علاجية للزائرين من صدمة اللقاء الأولية، إذ تنتقل نظرة الرهبة والغربة تجاه المكان إلى لحظات من التعارف والتقاط الصور التذكارية له ومعه، وتتحول مشاعر العجز وقلة الحيلة إلى مبادرة. ثم إن نشر الصور وتعريف العامة بحالة البلد المهجر تحولهم من مستهلكي معلومات إلى شركاء في مواكبة وتوثيق النكبة المستمرة.

لاحظت السلطات الإسرائيلية الحضور المتصاعد للنكبة في الحيز الإسرائيلي، كما في الخطاب الفلسطيني داخل إسرائيل، وتصاعدت، تبعاً لذلك، الردود والخطوات التي تهدف إلى قمع هذا الحراك وتحريمه قانونياً للحد من تمدده ولضرب شرعيته. فبادر أعضاء في الكنيست الإسرائيلي إلى صياغة اقتراح قانون يجرم «التعامل مع يوم الاستقلال أو يوم تأسيس الدولة كيوم جداد» كما جاء في نص الاقتراح. أثار الاقتراح جدلاً واسعاً بين

الأوساط الإسرائيلية سياسياً وأخلاقياً وقانونياً بين «ديمقراطيين» يعارضونه لتناقضه مع حرية التعبير و «مترمّتين» يرونها ضرورياً للدفاع عن يهودية الدولة. أما الفلسطينيون في إسرائيل فقد فهموا الاقتراح على أنه استمرار للنهج الإسرائيلي في محاولة طمس الهوية الفلسطينية ومنع الفعاليات السنوية التي ينظمونها في ذكرى النكبة. كان من المثير أن نرى كيف أن الجدل حول هذا الاقتراح، والذي لم تذكر في نصه كلمة نكبة، قد وضع النكبة في مركز نقاشات إسرائيلية في البرلمان والصحافة ومنظمات العمل الأهلي على مدى أسابيع، وقد أطلق عليه «شعبياً» اسم قانون النكبة.

شمل الاقتراح الأولي للقانون عقوبة السجن الفعلي لمن يحيي يوم الاستقلال [الإسرائيلي] كيوم جداد، وقد أقرته بهذا النص اللجنة الوزارية قبل طرحه للتصويت في البرلمان. إلا أن اعتراضات جمعيات حقوقية، وخشية المبادرين من تلطيخ «سمعة» إسرائيل في الساحة الدولية، والخوف من عدم القدرة على تطبيق القانون وإنفاذ العقوبة، والمشاورات التشريعية حول الاقتراح، أدت في نهاية المطاف إلى «تلطيفه» وتخفيض العقوبة من السجن

لاحظت السلطات الإسرائيلية الحضور المتصاعد للنكبة في الحيز الإسرائيلي، كما في الخطاب الفلسطيني داخل إسرائيل، وتصادعت، تبعاً لذلك، الردود والخطوات التي تهدف إلى قمع هذا الحراك وتحريمه قانونياً للحد من تمدده ولضرب شرعيته. فبادر أعضاء في الكنيست الإسرائيلي إلى صياغة اقتراح قانون يجرم «التعامل مع يوم الاستقلال أو يوم تأسيس الدولة كيوم جداد» كما جاء في نص الاقتراح.

إلا أنها ترى خطورة في الرسائل التي يحملها القانون تجاه الجمهور والمؤسسات، وترى أن أهدافه الحقيقية هي سياسية تهييبية وليست مادية أو قانونية. وانطلاقاً من هذا الفهم يجب أن يكون الرد أيضاً سياسياً وفكرياً وميدانياً. لقد نجح القانون لأول وهلة، بروحه أكثر من نصه، في ردع إسرائيليين، أفراداً ومؤسسات، من المشاركة في فعاليات حول النكبة، ظناً منهم أن ذلك غير قانوني. فكان على زخروت أن تواظب على نشاطها وأن توضح محدودية القانون حتى تحافظ على مساحة العمل، الضيقة أصلاً في الحيز الإسرائيلي. ومع ذلك، نجحت تهديدات وزارة الثقافة بإيعاز من منظمات يهودية يمينية في منع بعض المؤسسات «المستضعفة» المدعومة حكومياً من استضافة نشاط لزخروت، وبالمقابل رفضت مؤسسات أخرى الرضوخ للتهديد.

ترى زخروت الحالة الفلسطينية- الإسرائيلية كحالة استعمارية منذ نشأة الحركة الصهيونية، وأن النكبة هي أرضية حتمية، وليست فقط نتيجة حتمية، لإقامة الدولة اليهودية. فأفكار الترانسفير للفلسطينيين إلى خارج فلسطين موجودة في الأدبيات الصهيونية قبل إقامة الدولة بعشرات السنين، وكانت منظمة الهجناه تقوم بجمع معلومات عن العرب في البلاد منذ نشأتها عام ١٩٢٠ وأقامت رسمياً قسم المخابرات الخاص بها «ش. ي» في ١٩٤٠، وهو الذي انبثقت عنه أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية بعد قيام الدولة. وقام هذا الجهاز بالتجسس على البلدان العربية وتحضير تقارير مفصلة عن كل بلد منذ بداية الأربعينات من القرن العشرين، وقد عرفت هذه التقارير بملفات القرى، وهي موجودة في الأرشيفات الإسرائيلية ومتاحة منذ فترة للجمهور. عندما يُعرض تسلسل الأحداث بهذه الطريقة وبالوثائق أمام الإسرائيلي الراغب بالمعرفة، ويفهم بأن النكبة كانت مبنية ولم تحدث نتيجة رد فعل إسرائيلي على عدوان فلسطيني على

إلى غرامة مالية، واقتصر هذه العقوبة فقط على الهيئات التي تستعمل أموالاً حكومية لهذا الغرض. قام الكنيست الإسرائيلي في آذار ٢٠١١ بالصادقة على القانون في نصه الحالي تحت اسم «قانون أسس الميزانية»، ويحول القانون وزير المالية بتقليص التمويل الحكومي للمؤسسات والهيئات التي تتلقى دعماً مادياً من الحكومة في حال قيامها بنشاط يعارض تعريف دولة إسرائيل كدولة «يهودية وديمقراطية» أو يحيي يوم استقلال الدولة أو يوم تأسيس الدولة على أنه يوم حزن وحداد.

قام مركز عدالة- المركز القانوني لحقوق الأقلية العربية في إسرائيل، وجمعية حقوق المواطن في إسرائيل بتقديم التماس إلى محكمة العدل العليا الإسرائيلية لإلغاء قانون النكبة، وجاء في التماس، كما ورد في موقع عدالة الإلكتروني، أن القانون ينتهك مجموعة من الحقوق الدستورية، وعلى رأسها حرية التعبير السياسي والفني، والحق في المساواة، والحق في التربية، وفي حرية العمل، والحرية الأكاديمية. ويتوقع أن يمس القانون على نحو خاص حقوق المواطنين العرب الأساسيين؛ وتشكل الصيغة الفضفاضة والضبائية للقانون مصدراً للقلق حول المساس بميزانيات الكثير من المؤسسات العامة، نحو المراكز الثقافية، والمراكز التربوية والسلطات المحلية في مختلف أنحاء البلاد. وأضاف الملتمسون بأن تكليف وزير المالية باتخاذ القرار حول ما إذا سيجري تغريم المؤسسات العامة وكيفية ذلك، سيؤدي بالضرورة إلى التمييز في تطبيق القانون، الأمر الذي سيعزز من ملاحقة المواطنين الفلسطينيين في إسرائيل. رفضت المحكمة الالتماس معللة ذلك بأنه بالفعل «يحمل بين طياته أسئلة مركبة ذات أهمية جماهيرية، ولكن لا حاجة حالياً للبت من ناحية قضائية في هذه الادعاءات».

بالنسبة إلى زخروت فإن قانون النكبة بصيغته النهائية لا يمسها ولا يعطل نشاطها لأنها لا تتلقى أي دعم حكومي.

تؤمن زوخروت بأن تطبيق حق العودة للاجئين الفلسطينيين هو أهم ما يجب فعله من أجل العدالة وتصحيح الغبن وإغلاق ملف النكبة، وشرعت منذ سنوات في طرح العودة كجزء من فكر الاعتراف بالنكبة وتحمل المسؤولية عنها. وفي ذات الوقت تؤمن زوخروت بأن العودة يجب ألا تؤدي إلى تهجير جماعي قسري جديد، لأي من سكان البلاد ولا للمستعمرين أنفسهم.

اليهود عام ١٩٤٧ بسبب قرار التقسيم، فإنه يصاب بالدهشة إزاء هذا الحقائق. منهم من يستغل الفرصة للتعلم أكثر في سبيل البحث عن الحقيقة، ومنهم من يرفض الطرح من أساسه بادعاء الانحياز والكذب، أو بادعاء خطورة هذا التوجه لأنه يوجب الكراهية ضد اليهود، أو عدم الجدوى من فتح أوراق الماضي لأن ذلك لا يوصل إلى «السلام». ولطالما اتهمت زوخروت بأنها تستأنف على يهودية الدولة، مع أن أهدافها المكتوبة والرسمية محصورة بما ذكر سابقاً في التوجه إلى الجمهور الإسرائيلي لتعريفه بالنكبة ومطالبته بالاعتراف بها وتطبيق عودة اللاجئين، دون التطرق إلى شكل الحل السياسي الأمثل.

تؤمن زوخروت بأن تطبيق حق العودة للاجئين الفلسطينيين هو أهم ما يجب فعله من أجل العدالة وتصحيح الغبن وإغلاق ملف النكبة، وشرعت منذ سنوات في طرح العودة كجزء من فكر الاعتراف بالنكبة وتحمل المسؤولية عنها. وفي ذات الوقت تؤمن زوخروت بأن العودة يجب ألا تؤدي إلى تهجير جماعي قسري جديد، لأي من سكان البلاد ولا للمستعمرين أنفسهم. وكلما تطور البحث في زوخروت بموضوع العودة نبعت أسئلة جديدة وتحديات حول كيفية تطبيقها على أرض الواقع.

رغم أن زوخروت ظلت ملتزمة بتعريفها كمؤسسة تعمل داخل المجتمع الإسرائيلي المستعمر إلا أنها احتاجت دائماً إلى التعاون مع مؤسسات وشخصيات فلسطينية من أجل استقاء المعلومات والاستشارة والتنسيق. وكان موضوع العودة من أكثر المواضيع تعقيداً للتعامل معه. إذ إن هذا الحق ظل ثابتاً على مدى عقود كجزء من الحلم الفلسطيني ومن شعارات الثورة الفلسطينية، لكنه لم يتخذ أبداً شكل البرنامج السياسي العملي. وفي ذات الوقت، كان وما زال من أكبر الكبار المحرمة للنقاش في المجتمع الإسرائيلي.

لأن العودة في نظر غالبية الإسرائيليين تعني تهديداً وجودياً وإبادة فعلية لليهود الإسرائيليين. ترى زوخروت أن هذا الموقف المهيمن على الفكر الصهيوني نابع – بالإضافة إلى الشعور بالذنب – من رؤية عنصرية تجاه الفلسطيني «نازي المستقبل» الذي سيقوم بإبادة اليهود حينما تعطى له الفرصة، ويرى أن عداة الفلسطينيين للإسرائيليين هو أمر مجبول في شخصية الفلسطيني الهجري ولذلك لا يمكن التعايش معه بأي حال من الأحوال، وعلى إسرائيل أن تعمل كل ما بوسعها لسد الطريق أمام «الإبادة الممكنة»، ومن ضمن ذلك منع العودة بكل ثمن. وما زال هذا الموقف سائداً حتى بين الإسرائيليين الذين يعرفون أنفسهم باليساريين أو الليبراليين. وقد لاحظنا في عملنا أن الكثير ممن كانوا منفتحين لتعلم النكبة وحتى الاعتراف بها والاعتذار عنها، لم يطبقوا تقبل فكرة العودة أو التطرق إليها.

ما بين الحلم الفلسطيني بعيد المنال، من جهة، والرعب الإسرائيلي المستعمل لأهداف سياسية من جهة ثانية، طرحت زوخروت تعاملاً جديداً مع العودة، انطلاقاً من حتمية حدوثها، يتخطى النقاش المقتصر على الحق فقط، والانتقال إلى تصوّرها وتخطيطها ورسم المستقبل في أعقابها وطرح الجوانب العملية للعودة. فنظمت زوخروت أياماً دراسية مع مؤسسات فلسطينية تعمل في موضوع اللاجئين وحق العودة وخبراء من جامعات مختلفة في أنحاء العالم، وقامت بدراسة حالات عودة فعلية تمت في التاريخ المعاصر، وأدارت ورشات عمل مع إسرائيليين وفلسطينيين لتخطيط عودات إلى قرى مهجرة. وقد نظمت كذلك ثلاثة مؤتمرات حتى الآن في تل أبيب عن العودة الفعلية. وقد تراكمت مع السنين أدبيات مثيرة حول العودة، وساهمنا بدورنا المتواضع إلى تحويل الفكرة عن العودة، في أطرنا المختصرة، من مستحيلة إلى ممكنة، ومن تهديد إلى

فرصة ومن عبء إلى ثروة. وما زال الموضوع يتطور ويتداول بين المختصين في هذا الشأن ويمكن الاطلاع عليه في موقعنا الالكتروني، ورؤية تنوع الآليات التي استعملناها لدفع النقاش قدماً في هذا الموضوع الملعوم، مثل كتاب «عودة إلى نيتي» -شهادات متخيَّلة من مستقبلات ممكنة» وفيه ثلاث عشرة قصة قصيرة خيالية لكتاب/ات فلسطينيين وإسرائيليين، ومخططات معمارية لقرى فلسطينية مهجرة بنيت في خيال أصحابها من جديد. وقد نجحت زوخروت مؤخراً بإنشاء جسم فكري سياسي اسمه «مجلس العودة»، مكون من حوالي أربعين شخصاً يهودياً يعترفون بحق العودة وقد أصدروا، رغم حساسية الموضوع إسرائيلياً، ورقة موقف بالعبرية ينادون من خلالها بتطبيق حق العودة والاعتراف الإسرائيلي بها وبناء منظومة سياسية جديدة قادرة على احتواء كل مواطنيها وقاطنيها بمساواة تامة وديمقراطية حقيقية، خلافاً للوضع القائم حالياً تحت نظام الدولة اليهودية.

ختاماً، ترى زوخروت -كما ورد على موقعها الالكتروني- أنَّ السلام سيسود في البلاد فقط بعد أن يتمكن كافة أهلها ولاجئها من العيش دون تهديد بالطرد أو منع العودة بالقوة. لذلك، فإنَّ الاعتراف بحق اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى ديارهم هو شرط حتمي لتأسيس سلام ونظام ديمقراطي حقيقي في البلاد. يجب ألا يكون حق العودة متعلقاً بطابع التسوية السياسية النهائية في البلاد (دولتان، دولة واحدة، أو كونفدرالية)، بل إنَّه شرط سابق لتلك كلها. عودة اللاجئين الفلسطينيين هي التحديُّ الأهم بالنسبة لليهود في إسرائيل. إنه تحدٍّ يلزم اليهود بتغيير أنفسهم. ستحقِّق عودة اللاجئين العدل للمهزومين، لكنها تشكِّل أيضاً سيرورة تسمح لليهود في إسرائيل، بعد ما يزيد عن مائة سنة للصهيونية، بالاعتراف بأهل البلاد الأصليين ومشهداها. ستحوِّل عودة اللاجئين الفلسطينيين هذه البلاد بنظر اليهود من «أرض خاوية بلا شعب» إلى أرض ممتلئة يطيب العيش فيها وليس الموت والإماتة فيها فقط. كذلك، فإنَّ العودة تسمح للفلسطينيين بالبدء في سيرورة مصالحة مع اليهود وتؤشِّر على انتهاء فترة الكولونيالية في البلاد.

يعكس النشاط الذي يقوم به يهود في زوخروت رغبة لدى يهود في إسرائيل بتغيير تعاطيهم بشكل أساسي مع المسألة التي حلت بالفلسطينيين وأنشأت الأساس لإقامة الدولة اليهودية في البلاد. يسعى هؤلاء الناشطون لليهود لمعرفة المسألة التي حلت بالفلسطينيين، ولكنهم يسعون أيضاً لفهم النكبة كتاريخ لهم

أنفسهم. فقد طرد اليهود الصهيونيون الفلسطينيين ومنعوا عودتهم، لذلك فإنَّ هذه القصة هي أيضاً «قصة يهودية». لا يمكن فهم (وتحدّي) هوية اليهود في البلاد بدون التطرُّق إلى التطهير العرقي الذي أتاح لهم الحياة في دولة تمتَّ إقامتها لليهود فقط. تجعلنا معرفة النكبة نلتقي مع قصص أخرى حول علاقات يهود وعرب في البلاد قبل النكبة وخلالها. منها حول الجيرة الحسنة ومحاولات المعارضة من قبل يهود للفظائع ضد فلسطينيين، والتي تتحدّى الرواية المهيمنة. تذكر هذه القصص «المقاومة» دائماً أنه كانت هناك إمكانات أخرى في كل لحظة زمنية، وأنه كان يمكن للتاريخ أن يسير بشكل مختلف. التاريخ ليس سيرورة سببية معروفة النهاية سلفاً. النكبة هي نوع من نقطة صفر للصراع، لكن التاريخ منذ تلك اللحظة صنعه أشخاص بواسطة قرارات سياسية حاسمة. يشكِّل فتح هذه القرارات للجدل والقراءة المجددة رافعة مهمة لتغيير مستقبلي في العلاقات مع الفلسطينيين.

«ذاكرات» النكبة باللغة العبرية معناها خلق لغة جديدة تستأنف على اللغة السائدة في الجمهور اليهودي. لغة عبرية مع نكبة في داخلها لا يمكن أن تظل لغة يهودية طاهرة، ولو بفعل المصطلح العربي نفسه الذي يشير إلى المسألة.

بما أن مهمة زوخروت الأساسية هي محاولة إحداث تغيير لدى يهود في إسرائيل، فإن عمل اليهود فيها وتأسيسها من قبل يهود تزيد من احتمالات قبولها لدى الجمهور اليهودي. إنَّ شعار «لنتحدَّث النكبة بالعبرية» يجسّد هذا جيداً.

ذاكرات - زوخروت هي إعلان عن عدم معرفة النكبة وعن أهمية التعلُّم عنها. في محاكاة للمقولة الشهيرة المنسوبة إلى سقراط، يمكن القول إنَّ الشيء الوحيد الذي نعرفه بيقينية هو أننا لا نعرف (تقريباً) شيئاً عن النكبة الفلسطينية. يذكرنا المرئي المعروف بأولو فيريري بأنَّ الجهل والوعي به هو نقطة الانطلاق التي تتطوّر منها المعرفة. إذًا، زوخروت هي مجموعة تتعلم من خلال النشاط وتسعى لدفع ممارسة تعلُّم النكبة بين اليهود في إسرائيل. ووفقاً لسلافوي جيجيك فإنَّ «الممارسة تختلف عن المشاركة الفاعلة بكونها تغيّر من يمارسها. الممارسة ليست شيئاً «أنفذه» بكل بساطة - فبعد الممارسة «لا أعود ما كنت»، ببساطة». تقترح ذاكرات على اليهود في إسرائيل سيرورة من التغيير الذاتي وغير البسيط من خلال «التعلُّم عن تاريخ بعيد». تسعى زوخروت إلى الدفع قدماً بالاعتراف بالنكبة لدى الجمهور اليهودي في إسرائيل بأشكال تلائم قدرة اليهود على التعاطي مع هذا الموضوع المشحون.